١٩ ـ الحديث التاسع عشر
«لايضر ولا ينفع الا الله»:

عن عبدالله بن عباس (رضي)، قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال لي: ياغلام إني اعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

٢ ـ روايات أخرى للحديث

* في رواية غير الترمذي: احفظ الله تجده امامك، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم ان ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا»[١].
* وفي رواية: واذا استعنت فاستعن بالله، قد جفَّ القلم بما هو كائن، فلو ان الخلق كلهم جميعاً ارادوا ان ينفعوك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه . . . الخ[٢].

٣ ـ أهمية الحديث:

* قال ابن علان على هامش الاذكار: وهي من أبلغ العبارات وأوجزها واجمعها

(١) الجامع ص ١٦١. (٢) الجامع ص ١٦١.

لسائر الاحكام الشرعية، .فهو من بدائع جوامعه ﷺ[1].

* وقال ابن رجب: هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من اهم امور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث فأدهشني . . . فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه، قال ابن رجب: وقد افردت لشرحه جزءا كبيراً[2].

* وقال النووي: هذا حديث عظيم الموقع.[3]

٤ ـ شرح الحديث:

أ) البيان اللغوي

* خلف النبي: على بغلته. * كلمات: الكلمة تطلق على لفظة مؤلفة من حروف ذات معنى، وعلى قصيدة بكاملها

* احفظ الله: راقبه في اوامره ونواهيه، وكن مطيعاً له في السر والعلن.

* يحفظك: ان تحفظه كذلك يحفظك في نفسك واهلك ودينك ودنياك، ولاسيما عند الموت[4].

* تجده تجاهك: وفي رواية امامك، واخرى: معك: بالحفظ والعناية والتأييد حيثما كنت فتأنس وتستغني به عن خلقه، فهو تأكيد لما قبله[5].

* استعن بالله: اطلب المعونة منه وحده، فلا معين سواه، والاسباب العادية إن هي الا بتيسيره وتوفيقه، والمراد: ان لاتعتمد بقلبك الا على الله، لأنه خالق الاسباب ومسخرها.

* الأمة: الناس، وقد روي «الخلق».

---

(١) هامش ص ٣٦٧ الاذكار. (٢) الجامع ص ١٦١. (٣) الاذكار ص ٣٦٧.

(٤) قال ابن رجب: حفظ الله لعبده يشمل نوعين: أ) حفظه في مصالح دنياه، في بدنه وولده واهله وماله، وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته.

(ب) حفظه في دينه وايمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضله. ومن الشهوات المحرمة، وعند موته، بأن يتوفاه على الايمان ص ١٦٢/ الجامع.

(٥) قال ابن رجب: من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كل احواله حيث توجّه يحوطه بحفظه ويوفقه ويسدده/ ص ١٦٤/ الجامع.

* لو: بمعنى إن، مثل الثانية، لان المعنى على الاستقبال.
* رفعت الاقلام: ثبتت الاحكام القدرية، كما في رواية: جف القلم بما هو كائن.
* جفت الصحف: اي كتابتها، وهذا كناية عن قدم الكتابة، اي كتابة المقادير، فلا تغيير.
* تعرف: تحبب الى الله بطاعته في الرخاء، اي سعة العيش وصحة البدن.
* يعرفك: يجازيك [1].
* مااخطأك: جاوزك من المقادير «نعمة، رخاء، شدة، بلاء . . .»
* ماأصابك: قدر لك في الأزل.
* اذا سألت: دعوت، اي لاتسأل ولاتتوجه بالدعاء الا الى الله.

ب) المعنى الاجمالي:

كان النبي ﷺ لايترك لحظة تمر دون ان يقوم بحق الله عليه من عبادة او دعوة، او تبليغ رسالة، فهاهو يتوجه الى غلام يافع، يعلم فيه شدة الذكاء والحرص على التعلم، فيتوجه اليه بوصية جامعة وهو راكب خلفه على البغلة، ويعلمه في هذه الوصية مايصلح أساساً لفهم كامل وتصور تام لطبيعة العلاقة بين العبد وربه، وجعل هذه العلاقة حية نابضه في كل مناشط الانسان: في شدته ورخائه، في عسره ويسره، في فقره وغناه، ويعتبر الاساس الذي قامت عليه هذه الوصية الايمان التام بالقدر، وانه لن يكون الا ماقدره الله في الأزل، فلا ينفع مع ذلك الاعتقاد خوف او رجاء من غير الخالق، ولايليق مع هذا بالانسان ان يستعين او يستعيذ او يسأل الا من بيده مقاليد كل شيء ومقادير كل أمر، قال ابن رجب: واعلم ان مدار جميع هذه الوصية على هذا الاصل، وماذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع اليه، فان العبد اذا علم انه لن يصيبه الا ماكتب الله له من خير وشر، وان اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة؛ علم حينئذ ان الله هو وحده الضار

---

(١) قال ابن رجب: ان العبد اذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك الى الله، فعرفه ربه في الشدة، فنجاه منها، فمعرفة العبد لربه نوعان: أ عامة وهي التصديق والايمان وهي عامة للمؤمنين. ب) وخاصة تقتضي ميل القلب الى الله بالكلية والطمأنينة بذكره والحياء منه، ومعرفة الله لعبده ايضاً نوعان: أ) عامة: وهي علمه. ب) وخاصة، تقتضي محبته لعبده واجابة دعائه وانجائه من الشدائد/ الجامع ص١٦٥.

النافع، المعطي المانع، فاوجب ذلك للعبد توحيد ربه وافراده بالطاعة وحفظ حدوده في جميع احواله.[1]

٥ ـ بعض مايرشد اليه

* فيه الحث على التوكل على الله، والرضا بالمقدور، والصبر على مر القضاء.
* بيان ان الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.
* الله سبحانه يحب ان يسأل ويلح في سؤاله. ويغضب على من لايسأل بخلاف المخلوق.

الله يغضب ان تركت سؤاله : وبني آدم حين يُسأل يغضبُ

* الحديث مؤكد للقرآن الكريم، وقد يكون منتزعاً منه، فقوله: اذا سألت . . . واستعنت منتزع من قوله تعالى: اياك نعبد واياك نستعين، وقوله وان مع العسر يسرا، منتزع من قوله تعالى فإن مع العسر يسرا . . .»، وقوله احفظ الله يحفظك، من قوله تعالى: «فاذكروني أذكركم».
* من ضيع الله، ضيعه الله، فضاع بين خلقه، فيدخل عليه الضرر والاذى ممن كان يرجو نفعه من اهله وغيرهم.
* ان مايصيب العبد في دنياه كله مقدر عليه، ولايدفعه ولايرفعه اجتماع الخلق كلهم.
* ان العبد اذا علم انه لن يصيبه الا ما كتب الله له . . . علم ان الله وحده هو الضار النافع، فأوجب ذلك له توحيد ربه وافراده بالطاعة وحفظ حدوده واتقاء سخطه، ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً، وافراده بالاستعانة والدعاء، واخلاص الدعاء له في الشدة والرخاء.
* الحرص على تعليم الصغار، والاقبال على تربيتهم، والاهتمام بشكل خاص بعقيدتهم وسلوكهم، وتأديبهم بالآداب النافعة لينشأوا على الفهم السليم والخلق القويم.
* استمرارية التعليم وعدم قصره على أمكنة وفي أزمنة خاصة، بل تقديمه كلما دعت الحاجة الى ذلك.

---

(١) الجامع ص ١٦٩.

* توجيه عناية خاصة بالموهوبين من الأبناء، وتقديم تربية مركزة لهم، تحقيقا لمبدأ مراعاة الفروق الفردية، وهو من اهم مباديء التربية الحديثة.
* إن الله سبحانه شرع الحدود والاحكام، ليعرض عباده الطائعين للخير والنفع العظيم بما ينتظرهم من الجزاء والثواب يوم الحساب، وبما يلقونه عاجلاً في الدنيا من تيسير امورهم وتوفيق الله لهم، وبخاصة عندما تنزل بهم الشدائد.
* الضار والنافع هو الله وحده، ومن اعتقد غير ذلك فقد ضل وغوى وضارع أخلاق المشركين.

٦ ـ بعض تطبيقات الحديث:

* جاء في كتاب الفوائد: **فائدة**: قوله تعالى «وان من شيء الا عندنا خزائنه» ان كل شيء لايطلب الا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وان طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولايقدر عليه، وقوله: وان الى ربك المنتهى» متضمن لكنز عظيم، وهو ان كل مراد لم يرد لاجله ويتصل به والافهو مضمحل منقطع، فاجتمع مايراد منه سبحانه في قوله السابق، واجتمع مايراد له كله في قوله الثاني، بامتثال الاوامر واجتناب النواهي، والعبد دائماً متقلب بين احكام الاوامر والنوازل، فهو مضطر الى العون عند الاوامر، والى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالاوامر يحصل له من اللطف عند النوازل[1].
* وفي قبسات، قال محمد قطب: والمسلمون يعرفون الله ولكنهم يعرفونه في ظاهر قلوبهم ولا يحفظونه، يعرفونه ولايأتمرون بامره ولاينتهون بنهيه، وهو بذلك يعني ما آلت اليه حال كثير من المسلمين الآن من الاقتصار على دعوى الاسلام، ومن التفاوت الكبير بين سلوكهم وحقيقة الاسلام[2].
* كان ﷺ يقول في دعائه: (. . . . واحفظني من بين يديَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، واعوذ بعظمتك ان اغتال من تحتي»
* قال ابن رجب: من حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله، وكان بعض العلماء قد جاوز

(١) الفوائد ص ٢٠٢. (٢) قبسات ص ٦٤.

المائة سنة وهو ممتع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديد، فعوتب في ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، وعكس هذا: ان بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس فقال: ان هذا ضعيف ضيع الله في صغره، فضيعه الله في كبره.

* وقال: ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه: ان يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الاذى، كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ حيث كسر به المركب وخرج الى جزيرة، فرأى الأسد، فجعل يمشي معه حتى دله على الطريق، ورؤى ابراهيم بن ادهم نائماً في بستان وعنده حية في فمها طاقة نرجس، فمازالت تذب عنه حتى استيقظ، وعكس هذا قال بعض السلف: اني لأعصي الله، فاعرف ذلك في خلق خادمي ودابتي[1].

* في مجلة هدى الاسلام، موضوع بعنوان: حكم المستغيث للاستاذ يوسف عبدالرحمن صالح، جاء فيه: لقد درج علماء الاسلام على تعريف العبادة بانها اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الاقوال والافعال . . . كالدعاء والنذر والاستعانة والاستغاثة . . . وكلها لاتصلح لغير الله، ومن صرف منها شيئاً لغير الاله فهو مشرك وان ادعى الاسلام[2].

* وفي مجلة الرابطة، مقال بعنوان: حكم الاستغاثة بغير الله، للشيخ عبدالعزيز ابن باز، يعلق فيه على ابيات نشرتها مجلة المجتمع الكويتيه، بمناسبة ذكرى المولد ومنها:

يارسول الله أدرك أمة ... في ظلام الشك قد طال سراها
عجل النصر كما عجلته ... يوم بدر حين ناديت الاها،

واعتبر ذلك شركاً[3].

* وفي الرسالة ١٢ في مجموعة السائل الكبرى: رسالة الاستغاثة، قال ابو يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وقال ابن تيمية: وقد يُستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه[4].

---

(١) الجامع ص ١٦٣.

(٢) العدد ٤/ مجلد ١٥/ السنة١٥/ ١٩٧١م.

(٣) العدد ٥/ ١٩٧٠م. (٤) مجموعة الرسائل ص٤٨٢، ٤٨٥.

* قال رجل لابي الدرداء: اوصني: فقال: اذكر الله في السراء يذكرك الله عز و. في الضراء[1].

* بايع النبيﷺ جماعة من اصحابه علىان لا يسألواالناس شيئاً،منهم ابو بكر وابو ذر وثوبان، وكان احدهم يسقط السوط او خطام ناقته فلا يسأل احداً ان يناوله اياه[2].

* كان الامام احمد يقول في دعائه: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك، ولايقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك[3].

* في الحديث: «ان لكل شيء حقيقة، ومابلغ عبد حقيقة الايمان حتى يعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وان ماأخطأه لم يكن ليصيبه»[4].

* جاء رجل الى النبي ﷺ فسأله ان يوصيه وصية جامعة موجزة فقال: لاتتهم الله في قضائه[5].

* قال الفضيل: والله لو يئست من الخلق حتى لاتريد منهم شيئاً لاعطاك مولاك كل ماتريد[6].

* كتب الحسن البصري الى عمر بن عبدالعزيز: لاتستعن بغير الله فيكلك الله اليه[7].

* قال بعض السلف: اذا حضر الرجل الموت، يقال للملك: شم رأسه، قال: أجد في رأسه القرآن، قال شم قلبه، قال: أجد في قلبه الصيام، قال شم قدميه، قال اجد في قدميه القيام، قال: حفظ نفسه فحفظه الله[8].

* قال ابن تيمية في الاستغاثة بغير الله: يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون، ولقد ذكر بعض الشيوخ[9]. ممن يستغيث بهم بعض الجهلة: ان الشياطين يوصلون إليهم كلام من استغاث بهم، فيجيبونهم، والشياطين ايضا يوصلون الاجابة الى المستغيث.

---

(١) جامع العلوم ص ١٦٦.

(٢) السابق ص ١٦٧. (٣) الجامع ص ١٦٨. (٤) السابق ص ١٦٩.

(٥) السابق ص ١٧٠. (٦) السابق ص ١٧٣. (٧) الجامع ص١٦٨.

(٨) الجامع ص ١٦٤.

(٩)«الفرقان ص ١٥٨.

٧ ـ مناقشة حول الحديث:

س١) لماذا قال في جانب النفع لو، وفي جانب الاضرار «إن» التي تفيد التشكيك؟
جـ١) ليفيد ان اجتماعهم على النفع مستحيل، بخلاف الاضرار فانه ممكن، لان الظلم من طبائع البشر.

س٢) هل يتغير القضاء؟ جـ٢) ظاهر الحديث انه لايتغير، والمفهوم من اية : يمحو الله مايشاء، انه قد يتغير، فقال بعض العلماء في التوفيق: القضاء قسمان:
أ) مبرم لايتغير ب) ومعلق قابل للتغير، فيكون المحو والاثبات مما كتب في الصحف[1].

س٣) هل يعني الحديث: ان لايسأل الا الله في كل شيء؟
جـ٣) ان كانت الحاجة لم تجر العادة بجريانها على ايدي الخلق، كالشفاء والفهم والاهتداء والنصر، فلايسأل في ذلك الا الله، وان كانت مما جرت بها العادة سأل الله ان يعطف قلوب عباده عليه.

س٤) اذكر آية بمعنى الحديث جـ٤) وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو . . . الآية[2].

س٥) اذكر ماورد في اهمية الحديث.

س٦) كيف يتعرف الانسان الى الله . .؟

س٧) كيف تكون معرفة العبد لربه، والرب لعبده؟

س٨) لماذا لايجوز الاستعانة الا بالله؟ جـ٨) لان الخلق عاجزون عن الاستقلال بجلب مصلحة ودفع مضرّة.

س٩) مالمراد بقوله: رفعت الاقلام وجفت الصحف؟

س١٠) ماعلاقة الحديث بالأربعين؟ جـ١٠) له علاقة وثيقة بالحديث الرابع «ان احدكم ليعمل، فهو في معناه، وكلاهما يقرر القدر السابق، وان ماقدر لابد ان يقع ولو في آخر لحظة، من اعمال ومن سعادة، أو شقاوة، وبحديث:

---

(١) راجع تفصيل ذلك في مبحث المناقشة على الحديث الرابع / الاشكال الثاني.
(٢) الآية ١٠٧/ من سورة يونس.

كن في الدنيا كأنك عابر سبيل، وبحديث «فعل الاوامر واجتناب النواهي»، وبحديث ٤٢ ـ ياابن آدم انك مادعوتني ورجوتني . . . وبحديث ٤١ ـ لايؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به، وبحديث ٣٨ ـ وماتقرَّب إليّ عبدي بشيء . . . الخ ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذني لاعيذنه وبحديث ٣٠ «ان لله فرائض فلا تضيعوها . . . وغيرها من الاحاديث مما يظهر بأدنى تدبر

س١١) هل الملائكة الحفظة، تحفظ من القدر جـ١١) لا، بل اذا جاء القدر تخلوا أوخُلّوا عنه، قال علي (رضي) : ان مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر . . .[١].

س١٢) لماذا يحرم سؤال غير الله جـ١٢) لان السؤال فيه اظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة، وفيه الاعتراف بقدرة المسئول على رفع هذا الضر وجلب المنافع، ولايصلح الذل والافتقار الا لله وحده لأنه حقيقة العبادة.

س١٣) ماجزاء من استعان بغير الله جـ١٣) وكله الله الى من استعان به، فصار مخذولاً.

س١٤) اكتب آية في معنى مضي القدر بما هو كائن جـ١٤) «ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها، ان ذلك على الله يسير»[٢].

س١٥) هناك درجتان للايمان بالقدر، بينهما.

جـ١٥) الأولى وهي اعلاهما: الرضا، وحصول اليقين للقلب بالقضاء السابق / والثانية : ان لم يستطع تحقيق الرضا، فعليه بالصبر على المكروه ـ ومما يعين على تحقيق الرتبة الاولى : ان يعلم ان عدم الرضا هو اتهام لله في قضائه، وان يعلم ما في الرضا من الخير العاجل والآجل وعلامة الرضا: ان لايتمنى غير ماهو عليه من شدة ورخاء كما روى عن عمر وابن مسعود (رضي) وغيرهما [٣]. وحكم الدرجة الاولى الاستحباب والثانية الوجوب.

---

(١) الجامع ص ١٦٢.

(٢) الآية ٢٢/ من سورة الحديد.

(٣) جامع العلوم ص ١٧٠.

* بيان عظيم فضل الله، وواسع كرمه وحلمه.
* حرص الاسلام على استئصال نزعات الشر او اضعافها ومقاومتها قبل بروزها إلى حيّز الفعل، معززاً هذا الاتجاه باعتبار ترك النزوع الى الشر من الحسنات.
* حرص الاسلام على تنقية وتهذيب النفس من داخلها واعلاء نزعات الخير فيها والتسامي بها. بحسب ما تسمح به الاستعدادات عند الافراد، من حسنة، الى عشر حسنات، الى سبعمائة، الى اضعاف مضاعفة، إلى الاطلاق: الا الصوم، فانه لي، وانا اجزي به، اوما سمي في القرآن: بغير حساب».
* الالفاظ صور المعاني ومجال تجليّاتها، فينبغي اختيار الالفاظ المناسبة للمعاني المقصودة.
* يصف الله نفسه ليس لمجرد بيان عظمته، وتنزيه نفسه، وإنما لأثارة العواطف النبيلة في النفوس، والحض على التخلق باخلاق الله سبحانه، في حدود القدرة الانسانية.
* الدال على الخير كفاعله، وإرادة الخير من الخير.
* الاصلاح الحقيقي الذي يعطي افضل النتائج هو الذي يعمل على اصلاح النفوس من داخلها، ولا يقتصر على إصلاح الظواهر.

٧ ـ بعض تطبيقاته :

* اورد النووي الحديث النبوي :«ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها مالم يتكلموا أو يعملوا به»، ثم قال: وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقرّ[1].
* قال العزّ بن عبد السلام: كل صفة قبيحة جبلية، فلا أجر عليها ولا وزر، فمن أجاب هذه الصفات الى ما تقتضيه، مما يخالف الشرع كان معاقباً على قبح إجابته، لاعلى قبح صفاته، ومن خالفها، وعمل بخلاف مقتضاها كان مثاباً على مخالفته، وذلك ان قصد وجه الله.

---

(١) شرح مسلم/ مجلد ١/ ج٢ ص١٤٦-١٥١.